

# الديمقراطية ليست هي الحل التاريخ يولد من جديد/ آلان باديو

## The Rebirth of History

رهبما يكون آلان باديو أحد أكثر الفلاسفة المعاصرين أهمية للقارئ العربي. تكمن هذه الأهمية في تهشيمه المستمر لقيم ومبادئ معاصرة تُوصف بالعالمية، والتي يُسارع الكثيرون لاتخاذها كالطريق الوحيد نحو تحقيق كرامة الشعوب، دون تقليبها وتمحيصها لسبب ما تحمل في طياتها من مفاجآت طروادية. آلية الهدم التي يستخدمها باديو تستمد قوتها من نقد جذري للفكر الغربي، وتفصح مساحات خصبة لطرح بدائل لمنظومة القيم والمفاهيم التي تشكل أعمدة المجتمعات الغربية المعاصرة.

يرى باديو أن كافة نظريات علم الوجود (الأونتولوجيا) في الفلسفة الغربية بدءاً من فلاسفة اليونان القديم وانتهاءً بهايديغر، تتهرب من فكرة التعددية، وتحاول فرض وحدوية باطلة على الوجود. في هذه الوحدوية يجد باديو بذوراً لاتجاهات عنصرية وفاشية وإقصائية، ويناقش أن الوجود الوحدوي غير ممكن، وأن الوجود يتألف من قائمة طويلة من الصفات التي تتنافس كلها على عنونة وجود الفرد (رجل، موظف، أبيض، قصير، مجرم، أب، أخ، مواطن، بروتستانتي فنان). في المقابل، الأنتولوجيا التي يطرحها باديو تعتمد كلياً على فكرة التعددية. يقوم باديو بصياغة أنتولوجيته باستخدام نظرية المجموعات الرقمية والتي لا وجود فيها للـ ١ كـ ١. بل الواحد هو مجرد مجموعة لا نهائية من التعددية، حيث تتعايش الصفات المذكورة سابقاً ولا يمكن تعريف الوجود بأحدها.

بعد بلورة فكره الفلسفي في عمله الأهم Being and Event «الوجود والحدث»، أخذت معظم

كتابات باديو تقوم على تحليل مختلف الأحداث من خلال هذا القالب الأنتولوجي وتطبيقها في مجالات السياسة والفن والعلم وحتى الحب أيضاً. تتراوح أعمال باديو في هذا الصدد بين الطرح الدقيق المتعمق وبين الأعمال الخفيفة التي تطمح للوصول إلى القارئ العادي غير المتمرس فلسفياً. كتاب باديو الجديد *The Rebirth of History* يقع حتماً في المجموعة الأخيرة.

في «التاريخ يولد من جديد»، يبدأ آلان باديو بنقد سلس ومقنع للرأسمالية في الغرب، وإن كان لا يقدم أفكاراً جديدة للقارئ المهتم بالماركسية، سوى ربما رده على انتقادات الفيلسوف الماركسي الإيطالي نيجري، وإصراره على فكرة أن الرأسمالية الحديثة ليس فيها ما هو جديد أو مبدع أو خلاق، وأن كل مواصفات الرأسمالية الحديثة تطرّق إليها ماركس وتنبأ بها بشكل أو بآخر. باديو لا يتعمق في مناقشة هذه الفكرة تاركاً ثغرات يصعب التغاضي عنها، ذلك أن رأسمالية اليوم بمؤسساتها العملاقة التي تفوق أحجام بعض الدول، وتغلغل الأيديولوجية الرأسمالية شبه التام في وجود الفرد أينما كان في العالم، يختلف بشكل كمي ونوعي عن رأسمالية المصنع والمنجم والمعمل التي شهدها ماركس. يرى باديو أن تطور الرأسمالية بشكلها الحالي جعلت ثلة صغيرة من «الزعران» يحكمون العالم، وبخصوص وصف حكام العالم بالزعران يتساءل باديو «ألا يمكن وصف هؤلاء الذين مبدأهم الوحيد هو الربح، بالزعران؟ الأفراد الذين هم على استعداد، في خدمة الربح، لسحق ملايين الناس إن لزم الأمر؟ أن يكون قدر ملايين الناس معتمداً على حسابات هؤلاء الزعران، أمر أصبح مسلماً به وواضحاً لدرجة أن قبول هذا «الواقع»، كما يحلو لئساخ هؤلاء الزعران تسميته، بلغ مستويات مدهشة أكثر من أي وقت مضى.» ص ١٢

يطرح باديو ما يصفه بالشغب كرد على هذه المشاكل في المجتمعات الرأسمالية ويقدم قراءة لأحداث عام ٢٠١١ بناء على أنتولوجيته ولكن دون ذكر واضح لها. يستخدم باديو مسمى «الشغب» بدلاً من الثورات لأن هذه الأحداث «لا تحمل فيها ما يسمح باستبدال فوري للسلطة» ص ٤٦ - وهنا يقتبس باديو من لينين - أي أن أعمال الشغب لا تنطوي على فكر سياسي وبرنامج واضح يمكن تطبيقه على الأرض. أعمال الشغب يمكن أن تتطور إلى ثورات، ولكن باديو يرفض التنبؤ بهذا، ما يتنبأ به باديو هو أن الشغب سيستمر وستزداد حدته، خصوصاً في أوروبا، حيث بدأت علامات انتهاء ما يسميه بالفترة *Intervall* منذ الثمانينيات من القرن الماضي، وهي فترة غياب أي نوع من التحدي الجاد لموازين القوى السائدة وأيديولوجيا السوق الحر.

يُقَسَّم باديو أعمال الشغب إلى الشغب الفوري، والشغب الكامن، والشغب التاريخي. مثال على

الشغب الفوري هو الشغب الذي حدث في بريطانيا العام الماضي وفي ضواحي باريس قبل ثلاثة أعوام، وهو شغب يحدث رداً على قتل شخص ينتمي إلى أحد الطبقات الدنيا أو نتيجة لتناول آخر مشابه من قبل السلطات. هذا الشغب الفوري هو نواة شغب تاريخي، ولكنه يفتقر إلى القدرة على صياغة مطلب معين أو التعبير عن دوافع، وسرعان ما ينتهي بعد فترة قصيرة من العنف والفضو. يمكن أن يبدأ التحول من الشغب الفوري إلى شغب تاريخي عندما يمتد خارج طبقة معينة في جغرافية معينة (المناطق الفقيرة) إلى قلب المدينة ليشترك في الشغب طبقات أخرى من المجتمع.

الشغب التاريخي لباديو هو ما حدث في العالم العربي. ما يميز الشغب التاريخي هو مركزه في موقع حيوي في المدينة (ميدان التحرير، دوار اللؤلؤة) وتوسع المشاركة فيه نوعياً وكمياً. أي أن أساليب المشاركة فيه لا تقتصر على العنف والتعرض للشرطة وأجهزة الدولة، بل يمتد إلى مساعدة المشاركين في الشغب بشتى الطرق مثل توفير المعدات الطبية أو الحماية أو الطعام أو التعامل مع الصحافة. من الميزات الأساسية الأخرى للشغب التاريخي هي وجود مطلب واضح يتم اختزاله في شعار بسيط رنان يتحد تحت رايته جميع المشاركين في الشغب: الموت ولا المذلة، الموت للمستبدين، الشعب يريد إسقاط النظام. هذا الاتحاد ضروري جداً لنجاح الشغب حيث أنه يلغي الفروقات ويفرض هيمنة العام على الفتوية المذكورة سابقاً، ففي التحرير مثلاً «رأينا المسلمين والأقباط، رجالاً ونساءً، المحجبات وغير المحجبات، المثقفين والعمال، كبار السن والشباب، والعديد من الفئات الأخرى، جنباً إلى جنب. كل الهويات تم استيعابها في الحركة، ولكن الحركة نفسها لم تكن قابلة للإخضاع لفئة واحدة.» ص ٧٨

النوع الثالث من الشغب هو الشغب الكامن، وهو يتمثل في أعمال التحفيز والتنظيم التي تبقى محصورة ولا تمتد لتأخذ قاعدة شعبية، مثل حزب كفاية في مصر قبل الثورة. يرى باديو أن وسائل الإعلام لا تغطي هذه النشاطات بجدية وتحجمها بحيث يصعب تحولها إلى أعمال شغب تاريخية. ما يميز الشغب الكامن هو أنه غالباً ما يمتلك برنامجاً سياسياً وفكرياً.

يذكرنا باديو أن «التاريخ لا يحمل داخله حلاً للمشاكل التي يضعها على الأجندة» ص ٤٢ ما يضعف بعض الشيء طرح كتاب باديو نفسه، ذلك أن الكتاب يترك شعوراً لدى القارئ بأن أفكار باديو أحياناً لا تتعدى كونها وصفاً لأحداث سابقة وتصنيفها بحيث تتوافق مع أنتولوجيته في «الوجود والحدث». وحسب هذا، فإن أعمال الشغب تكون هي الحدث الذي ينبثق عن كشف إجباري لعنصر خفي في مجموعة معينة (حسب نظرية المجموعات). هذا العنصر الخفي لباديو يكون عنصراً موجوداً في

المجموعة ولكن لا تتم تسميته ويتم استثنائه كلياً من خطاب المجموعة. مثلاً، إذا أخذنا الشعب الفرنسي كمجموعة، فإن عناصر هذه المجموعة اللانهائية تشمل: باريس، أبيض، موظف، عاشق، أب، قارئ، متزوج، مشجع فريق كرة قدم، رياضي، أب، أخ، ابن، عنصر، وإلى آخره من الصفات التي يمكن أن تنطبق على شخص فرنسي، حيث أن الشخص الفرنسي هو العنصر الواحد في هذه المجموعة التي بحد ذاتها تشكل واحداً آخر، وهو الشعب الفرنسي. يرى باديو أن هناك عنصراً خفياً في هذه المجموعة وهو الـ Sans Papiers (المهاجرون غير الشرعيين)، والذين عند ظهورهم على الملأ، ومطالبتهم بحقوقهم كبشر، ارتكبوا خرقاً للمجموعة السابقة وأظهروا فيها خللاً، ذلك أن المجموعة تدعي شمول كل البشر في فرنسا، ولكن بظهور «السان بابيي - الذين لا يحملون هويات فرنسية - اتضح أنها تستثني نوعاً معيناً من البشر، وتتعامل معهم على أنهم غير موجودين. باديو يأخذ هذا النمط المبني على أنتولوجيته ويطبقه على أحداث ٢٠١١، فيما يبدو كأنه بحث عن عامل مشترك أصغر بين هذه الأحداث.

ما يهدد أعمال الشغب وقدرتها على التحول إلى ثورات هو استخدامها لخطاب الدولة (أو الغرب) في مطالبها. يطرح باديو فكرة الديمقراطية المعاصرة كمثل على هذا. فالديمقراطية الغربية بشكلها المعاصر هي أبعد ما تكون عن التعبير عن إرادة الشعوب، بل هي أداة لقمع إرادة الشعوب عن طريق صناديق الاقتراع التي تمنح الناخب خيارات متشابهة إلى حد بعيد، ضمن آلية لا تسمح بأي تغيير حقيقي. يقول باديو أن إرادة الشعوب لا تتمثل في الأغلبية العددية، بل في قلة تتولى زمام الأمور وتكون مستعدة للتضحية، وبهذا تكون هي الممثل لإرادة الشعب (فإن المتظاهرين الذي تجمعوا في ميدان التحرير هم «الشعب المصري»؟ ... حتى لو وصل عددهم المليون، ذلك لا يمثل أكثرية عددية في شعب من ٨٠ مليون مصري. من حيث الأرقام الانتخابية، هذه فوزي عارمة! ولكن هذا المليون، في الميدان، له حجم هائل إذا توقفنا عن قياس التأثير السياسي عن طريق الأرقام المجزأة غير الفعالة) ص ٥٨. هذا النقد لفكرة الديمقراطية التي تستند إلى الأغلبية بعدد الأصوات بالغ الأهمية في ظل ما يمر فيه العالم العربي، ذلك أن أخذ العملية الديمقراطية على أنها الطريق الوحيد لتحرير الشعوب والنهوض بالأمة يطمح أكثر ما يطمح لمحاكاة الغرب، وهو الأمر الذي يجد فيه باديو بذور فشل أية تحرك ذو إمكانيات ثورية. «... ظاهرة محاولة الانتماء إلى الغرب لا يمكن اعتبارها تغييراً حقيقياً، ما يمكن أن يكون تغييراً حقيقياً يكون خروجاً عن الغرب، إزالة للغرب، وبأخذ هذا شكل استثناء (الذات من الغرب)» ص ٥٢. بالنسبة إلى باديو، أكثر ما يدفع على التفاؤل

في أحداث مصر مثلاً هو عدم وجود هتافات وشعارات تنادي بقيم غربية، وأن كلمة الديمقراطية كانت غائبة تماماً عن خطاب الثورة، على الأقل حتى تاريخ نشر الكتاب في نسخته الفرنسية في ٢٠١١.

في وقت يتسابق فيه المفكرون والفلاسفة لطرح تحليلات وقراءات للأحداث المجلجلة التي شهدتها العالم في العامين السابقين، يقدم باديو كما عودنا قراءة تتعارض مع قراءات المفكرين على كافة أطراف اليمين واليسار. كتاب باديو الأخير لا يقع في فخ تبسيط الأحداث لمجرد عرض من أعراض الرأسمالية المعاصرة أو ما بعد الاستعمار، وهو أيضاً غير مهتم باستخدام قوالب منبثقة عن الفكر الغربي وفرضها على معطيات الأحداث في شتى أنحاء العالم. ولكنه في الوقت نفسه، لا يتعمق بشكل كافٍ في قراءته للأحداث ولا يقدم الكثير للقارئ المهتم بالأبعاد الفلسفية لفكره. للتعرف على فلسفة باديو بشكل واضح وسلس نقترح كتابه القصير بعنوان «الأخلاق»، ولفهم متعمق لفلسفة هذا المفكر الخلافي فلا بديل عن عمله الرئيسي «الوجود والحدث».

يبقى منتوج باديو الأخير إذاً مناسباً جداً، بل وضرورياً لشبابنا في التحرير وتونس وأينما تُدار رحي العملية السياسية لأول مرة منذ عقود، حيث تكمن ضرورة خلق خطاب ثوري مستقل غير مبني على الاستلاب ومحاكاة منظومة القيم الغربية - مثل قيم حقوق الإنسان مثلاً - على ما تحمله في ثناياها من علاقات قوة واستعمار فكري. فالمهمة الطارئة الآن والتي لا بديل عنها هي خلق منظومة قيم جديدة مستقلة لا تُثقلها علاقات القوة بين الشرق والغرب، ولا تقيدها منظومة القيم الدينية.

معن ابو طالب